نداءات القرآن لخير الأنام

مهاب محمد عثمان



2014

نداءات القرآن لخير الأنام

مهاب محمد عثمان

الطبعة الأولى : 1435هـ / 2014م

رقم الايداع : 2013-8681

الترقيم الدولي : 9884-977-94-11-82-9

الإخراج الفني: محمد غريب
mohdghrib@gmail.com

تصميم الغلاف: إيمان صلاح



دار روعة للطبع والنشر والتوزيع
المدير العام: هبة الشرقاوي
هاتف: 00201140178144
darrawaa@yahoo.com

مقدمة

إن الْحَمْدَ لِلَّه نحمدهُ ونَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ تعالى مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولهُ.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

وبعد ،

ففى ذى القعدة من عام 1433 (سبتمبر 2012) قامت عاصفة ضد الفيلم المسئ للرسول صلى الله عليه وسلم ، وهى ليست المرة الأولى ، فقد سبق ذلك عاصفة ضد الرسوم المسيئة ثم عاصفة ضد التصريحات المسيئة وأخيرا ضد الفيلم المسئ !

وأرى أن الأمر لابد أن يخرج من نطاق الصراخ والعويل ضد هذه الإساءات المتكررة إلى نطاق خطوات عملية لنصرة خير البرية صلى الله عليه وسلم .

وأول هذه الخطوات : الإيجابية وعدم السلبية !

نعم ، لابد أن تنتوقف عن سياسة «للبيت ربٌ يحميه» ، لابد أن نكف عن إنتظار الطير الأبابيل التى سترمى الحجارة من سجيل على رؤوس المسيئين!

عفوا .. لسنا فى عصر أبرهة ، نحن فى عصر العلم ، عصر الفمتو ثانية ، عصرة الشفرة الجينية ، عصر التكتلات الإقتصادية ، عصر اليورو والدولار.

ثانى هذه الخطوات : إيقاظ الهمم !

فإلى متى سنستمر فى دور «دول العالم الثالث» ؟؟

متى نكون من دول العالم الأول ؟؟

متى نتحول إلى مجتمعات منتجة ؟؟

نحن مجتمعات مستهلكة ، والدليل : انظر إلى أكوام القمامة على ناصية الشارع الذى تصلى فيه ! نحن أمة تأكل وتستهلك فقط !

لابد أن تتحول أكمام القمامة إلى ورش عمل ، ورش إنتاج ، أعمال يدوية ،أسر منتجة ، تجمعات شبابية مبدعة .... لابد من علو الهمة ،ولكن أولا : لابد من إيقاظ الهمة .

ثالث هذه الخطوات : التآخى والتناصر !

فإن التنازع قرين الفشل ، قال تعالى فى سورة الأنفال «ولا تنازعوا فتفشلوا».

نحن لا نجتمع على كلمة واحدة فى أى محفل من محافلنا ! بدأً من البيت الذى نعيش فيه وإنتهاءً بالمجتمع الذى ننتمى إليه !

دعونا نختلف لنتكامل ، لا لنتنافر !

رابع هذه الخطوات : المبادرة إلى الخيرات !

سل نفسك : هل أنت من أهل هذه الآية : «يا أيها الذين آمنوا إذا نودى

للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع « ، أم أنت من هؤلاء « وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما » ؟؟

اختبر نفسك عندما تسمع داعى الخير أو دعوة الخير مقابل إستجابة النفس لخطوات وخطرات الشيطان الرجيم ، إلى أيهما تتسارع خطاك وعن أيهما تتباطئ قدماك ؟؟

خامس هذه الخطوات : نريد مليارا ومائتى مليون محمد !

ليس بالأسماء ولكن بالأفعال !

نريد أن نكون ممن إذا قيل لهم « تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول» قالوا : سمعنا وأطعنا ، ولا نكون ممن يقول «حسبنا ما وجدنا عليه أباءنا أو لو كان أباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون».

وأخر هذه الخطوات لنصرة خير البرية صلى الله عليه وسلم هى أن نتعرف على نداءات الرحمن تبارك وتعالى لعبده محمد صلى الله عليه وسلم خير الآنام ، تلكم النداءات التى جاءت فى كتاب ربنا عز وجل وعددها 17 نداءً . إثنان يبدآن بقوله تعالى «يا أيها الرسول» ، وثلاثة عشر يبدأون بقوله عز وجل «يا أيها النبى» ، ونداء ب «يا أيها المزمل» وأخر ب «يا أيها المدثر».

وقد تتبعت هذه النداءات فى كتاب الله عزوجل وكانت مجموعة من خطب الجمعة بمسجد المنارة بمصر الجديدة بالقاهرة فى الفترة من 12 ذى القعدة 1433 (28 سبتمبر 2012) وحتى 19 ربيع ثان 1434 (1 مارس 2013) ، وها هى مجموعة بين يدى حضراتكم فى هذا الكتاب سائلا المولى عز وجل أن يتقبلها فى ميزان أعمالنا أجمعين إنه نعم المجيب وهو نعم المولى ونعم النصير ، والحمد لله رب العالمين.

مهاب محمد عثمان

القاهرة ربيع أول 1435 – يناير 2014

(1)

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ سورة المائدة (41)

• هذا النداء الكريم اشتمل على مجموعة من القضايا:

• تعزية للرسول صلى الله عليه وسلم و مواساة ، وتهوين من أفعال القوم عليه.

• يكشف للمسلمين حقيقة المسارعين فى الكفر من المنافقين و اليهود .

• توجيه الرسول صلى الله عليه و سلم إلى المنهج الذى يسلكه معهم حين يأتون إليه متحاكمين (كما جاء فى الآية التالية و هى تتمة لهذه الآية) «فإن جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم»

ولكى نتعرف على هذه القضايا فحرىُ بنا أن نقف مع مفردات هذا النداء الكريم والتى تلقى الضوء على تفاصيل هذه القضايا:

• «يأيها الرسول» خاطبه ربه بعنوان الرسالة تشريفاً و تعظيماً و إشعاراً له بعدم الحزن إذ مَنْ كان فى مقامه لا يحزن مهما كانت المصائب.

• « لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر» لا تحزن على أمثال هؤلاء ، فإن هؤلاء لا فى العير و لا فى النفير ، إن حضروا لم ينفعوا ، وإن غابوا لم يُفقدوا ، فهم خارجون عن طاعة الله و رسوله ، مقدمون لأهوائهم و أرائهم على شرع الله ، لا تحزن فنحن معك بعوننا .

• « من الذين قالوا آمنا بأفواههم و لم تؤمن قلوبهم « إنها صفات هؤلاء الذين يسارعون فى الكفر : أظهروا الإيمان بألسنتهم ، و قلوبهم خراب هاوية من الإيمان . (وهؤلاء هم المنافقون).

• « ومن الذين هادوا» هم اليهود.

• «سماعون للكذب» فهو ليس سماع و لا إستماع ، وإنما « سمَّاعون « أى يستمعون إلى الكذب و يستجيبون له و ينفعلون به.

• « سماعون لقوم آخرين «

هؤلاء هم الطابور الخامس الذى يتلقف الأخبار ثم يذيعها مشوهة !!

أى أن هؤلاء المنافقون و اليهود يأخذون الأخبار عنك يا محمد من وسائط لم يأتوك أصلا و لم يحضروا مجلسك فكيف ينقلون عنك ؟؟ أى أن هؤلاء المنافقون و اليهود لم يكلفوا أنفسهم عناء التثبت من مصدر المعلومة ، فلو تثبتوا لعلموا أن من ينقلون عنهم الأخبار لا يمتّون إليك بصلة !

والطابور الخامس آفة المجتمعات على مر العصور ، ولعل وسائل الإعلام الأن (الميديا) قد أصبحت الأن مصدر الأخبار ومصدر المعلومة ، ولكنه – مع الأسف الشديد - فى كثير من الأحيان لا يكون مصدر ثبت أو مصدر ثقة ، فيتلقف الطابور الخامس المعلومة الغير موثقة من الميديا ثم يذيعها مشوهة أبعد ما تكون عن الحقيقة ، فتشيع الفوضى فى صفوف الناس ويتقاذف الناس بالإتهامات بدون دليل أو بينة اللهم إلا ما تلقفوه من وسائل الإعلام ! فما أشبه الليلة بالبارحة !

• « يحرفون الكلم عن مواضعه « يجلبون معانى و تفاسير لألفاظ ما أرادها الله و ما قصدها و ما أنزل بها من سلطان. إنه الكذب على الله ، وقوم إستمرأوا الكذب على الله لا يتورعون من الكذب وتلفيق الإتهامات على خلق الله .

• « يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه و إن لم تؤتَوه فاحذروا»

إن حكم لكم محمد بالحكم الذى يوافق أهوائكم فاقبلوه ، و إلا فاحذروا أن تتابعوه فى فتواه !

-إنها قمة العبث و الاستهتار و الإلتواء فى التعامل مع الله والتعامل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- إنها صورة تمثل أهل كل كتاب (توراة أو إنجيل أو قرآن) حين يطول عليهم الأمد ، فتقسو قلوبُهم ، و تبرد فيها حرارةُ العقيدة و يصبح التنصل من هذه العقيدة و شرائعها و تكاليفها هو الهدف الذى يُبحث له عن الوسائل (أو الفتاوى) !

إنه حال الذين قالوا آمنا بأفواههم و لم تؤمن قلوبهم ، إنهم يتلمسون الفتوى للإحتيال على الدين لا لتنفيذ تعليمات الدين ! أليس هؤلاء هم تجار الدين الذين انتشروا فى مجتمعاتنا الأن ؟؟

إنهم يتمسحون بالدين أحيانا لكى يقر لهم أهوائهم و أرائهم ويوقِع بالموافقة عليها !!

إن هؤلاء يسلكون سبيل الفتنة .....

• «و من يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا» ليس لك من الأمر شيء يا محمد (صلى الله عليه و سلم) وما أنت بمستطيع أن تدفع عنهم الفتنة و قد سلكوا طريقها و ولجوا فيها.

• «أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم» لسوابق الشر التى كانت لهم فحالت دون طهارة قلوبهم ، و حالت دون قبولهم الإيمان و الحق.

• « لهم فى الدنيا خزى و لهم فى الأخرة عذاب عظيم»

خزى: فضيحة وعار. إنه عار الدنيا وفضيحة الآخرة .

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ المائدة (67)

أولا : مفردات النداء القرآنى

- « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك»

هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه و سلم بأعظم الأوامر و أجلها ، وهو:

التبليغ لما أنزل الله إليه ، و يدخل فى ذلك كل أمر تلقته الأمة عنه صلى الله عليه وسلم من العقائد والأعمال و الأقوال و الأحكام الشرعية والمطالب الإلهية.

فبلغ صلى الله عليه و سلم أكمل تبليغ ، و دعا و يسر ، وبشر وأنذر ، وعلم الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين.

و بلّغ بقوله و فعله و كتبه و رسله ، فلم يبق خير إلا دل أمته عليه و لا شر إلا حذرها منه.

أخرج البخارى فى صحيحه من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت :

من حدثك أن محمدا كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب.

و فى الصحيحين عنها أيضا أنها قالت : لو كان محمدٌ صلى الله عليه و سلم كاتما شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية « و تخفى فى نفسك ما الله مبديه و تخشى الناس و الله أحق أن تخشاه « (والأية من سورة الأحزاب والتى تزوج فيها الرسول صلى الله عليه وسلم من السيدة زينب بأمر

إلهى فى القرآن ، وكانت قبل ذلك زوجة لمولاه زيد بن حارثة).

• «و إن لم تفعل فما بلغت رسالته »

تنبيه للرسول صلى الله عليه و سلم بعدم كتمان شىء من الوحى ، لأن كتمان البعض يُخل بالكل و يعتبر خيانة ، و هى مستحيلة فى حق الرسل فضلا عن رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و ليس معنى هذا الأمر أن الرسول صلى الله عليه و سلم كتم شيئاً ، حاشا لرسول الله صلى الله عليه و سلم أن يفعل ذلك ، ولكن المقصود منه بيان كمال أمانته صلى الله عليه و سلم و بيان مهمته المنوطة به صلى الله عليه و سلم .

و من أجل ذلك وجب على كل مسلم أن يعرف أن من بين الصفات الواجبة للرسل صفة التبليغ ، و صفة الأمانة.

و كيف يقصر صلى الله عليه و سلم فى تبليغ رسالته أو شىء منها؟ وهو الذى سيشهد يوم القيامة لإخوانه الرسل بأنهم بلغوا رسالاتهم إلى أممهم و ذلك بنص القرآن العظيم « فكيف إذا جئنا من كل أُمة بشهيد و جئنا بك على هؤلاء شهيدا «

• « والله يعصمك من الناس «

فالحفظ و النصرة والرعاية و التأييد و العناية بك من الله عز و جل. إنها حماية كاملة من الله تبارك و تعالى لرسوله صلى الله عليه و سلم.

فيكون المعنى : بلغ أنت رسالتى ، ولا تخف من المخلوقين ، فأنا حافظك و ناصرك و مؤيدك على أعدائك.

و قد كان الرسول صلى الله عليه و سلم قبل نزول هذه الأية يُحرس من أصحابه ، فلما نزلت قال: يأيها الناس انصرفوا عنى فقد عصمنى الله عز و جل.

و من عصمة الله لرسوله صلى الله عليه و سلم حفظه له من أهل مكة

و صناديدها مع شدة العداوة و البغضاء منهم ، و من ذلك تأييده بعد الهجرة بالأنصار الذين منعوه من الأحمر و الأسود.

• « إن الله لا يهدى القوم الكافرين»

أى بلغ أنت ، والله هو الذى يهدى من يشاء و يضل من يشاء «فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب»

فمن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم.

ثانياً: المعنى العام للنداء:

لقد نادى الله سبحانه وتعالى الرسول صلى الله عليه و سلم و كلفه تبليغ ما أُنزل إليه من ربه ، كل ما أُنزل إليه ، لا يستبقى منه شيئا ، و لايؤخر منه شىء مراعاة للظروف والملابسات أو تجنباً للإصطدام بأهواء الناس و واقع المجتمع ، وإن لم يفعل فما يكون قد بلغ. فبعض الناس – نتيجة لحسابات بشرية – قد يؤخرون ما يستحق التقديم أو يقدمون ما يستحق التأخير مراعاة للوضع الراهن أو الظرف الآنى ، فيأتى القرآن – والذى لا يلتفت لهذه الحسابات البشرية القاصرة – ويضع الأمور فى نصابها ولتسير الأمور إلى مقاديرها «ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير» .

ومن هذا الذى كُلف الرسول صلى الله عليه و سلم تبليغه أن يجابه أهل الكتاب –أهل كل كتاب – بما جاء فى الآية التالية لهذا النداء :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

تنبيه !!

إن القوة والحسم فى تبليغ كلمة الحق لا يعنى الخشونة والفظاظة ، فقد أُمر صلى الله عليه و سلم بالدعوة إلى سبيل ربه بالحكمة و الموعظة الحسنة.

وليس هناك تعارض بين الحكمة والموعظة الحسنة ، والحسم والفصل فى تبليغ كلمة الحق.

فوسيلة و طريقة التبليغ شىء ، و مادة و موضوع التبليغ شىء أخر. فالحق ليس فيه أنصاف حلول و لا إلتقاء فى منتصف الطريق.

• «لستم على شىء» من الدين من العقيدة والإيمان ، بل ليسوا على شىء أصلا يرتكن إليه!!

فالدين ليس كلمات تقال باللسان و ليس كتباً تُقرأ أو تُرتل ، وإنما هو منهج حياة.

هذه المواجهة الحاسمة ستؤدى إلى أن تزيد كثيراً منهم طغيانا وكفرا وعناد و لجاجا ، و لكن هذا لم يمنع من أمر الرسول بالمواجهة والتبليغ ، ثم فى النهاية مواساته بألا يأسى أو يحزن على أمثال هؤلاء.

(3)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾
سورة الأنفال (64)

● **أولا: « يأيها النبى »**

هذا النداء إنما يأتى فى الأحداث: أما البلاغ فيقول الله تعالى « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك»

إذن فالحق سبحانه و تعالى ينادى الرسول بـ «يأيها النبى» حين يكون الأمر متعلقاً بالأسوة السلوكية ، أما إذا كان الأمر متعلقاً بتنزيل تشريع ، فالحق سبحانه يخاطبه صلى الله عليه و سلم بقوله « يأيها الرسول».

و ذلك لأن الرسل إنما جاؤا مبلغين للمنهج عن الله ، و يسيرون وفق هذا المنهج كأسوة سلوكية. ومن هنا يتبين لنا الفرق بين الندائين بيا أيها الرسول وبيا أيها النبى .

● **ثانياً: « حسبك الله»**

أى يكفيك الله ، فهو سبحانه و تعالى كافيك.

فالله عز و جل يريد من رسوله صلى الله عليه و سلم ألا يلتفت إلى عدد الكفار أو قوتهم لأن معه الأقوى وهو الحق تبارك و تعالى.

● **ثالثاً: « ومن اتبعك من المؤمنين»**

أى : هو حسبهم كذلك ، فهو حسبك و حسبهم ، يكفيك و يكفيهم ، فلا تُلتمس العزة إلا منه سبحانه و تعالى.

و هذا وعدٌ من الله تبارك و تعالى لرسوله صلى الله عليه و سلم و لعباده المؤمنين، بالكفاية والنصرة على الأعداء ، فإذا أتى المؤمنون بالسبب (الذى هو الإتباع) فلابد أن يكفيهم ما أهمهم من أمور الدنيا و الدين ، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها و هو الإتباع. فالمعادلة هكذا : إيمان + إتباع = كفاية من الله ونصرة.

و يمكن أن يكون المعنى يكفيك الله فيما لا تستطيع أن تحققه بالأسباب ، و يكفيك المؤمنون فيما توجد فيه أسباب.

حسبك الله تتطلب منا أن نقف قليلاً ونطيل النفس مع هذا المعنى فيما يأتى من سطور ...

● رابعاً: اسم الله تعالى «الحسيب»

الحسيب : هو الكافى للعباد جميع ما أهمهم من أمورهم من حصول المنافع و دفع المضار.

و الحسيب بالمعنى الخاص: هو الكافى لعبده المتقى المتوكل عليه كفاية خاصة يُصلح بها دينه و دنياه و ليس كمثله شىء تبارك و تعالى فى كفايته لعباده.

و الحسيب أيضاً (بمعنى المحاسبة) فهو سبحانه يحفظ أعمال عباده من خير و شر و يحاسبهم إن خيراً فخير ، و إن شراً فشر.

● خامساً: حسبى الله و نعم الوكيل

يقول تعالى فى أخر سورة التوبة «فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم»

تأمل ... «فإن تولوا فقل..» لم يقل فاعتقد ، أو فاعلم ، بل : «فقل» ،

للإعلان ، إعلنها يا محمد ، إعلنها للناس كافة حتى يسمعوها ، إعلنها حتى يلتفتوا إلى الحقيقة ، إعلنها ، فإنك لن تقولها إلا وعندك رصيد إيمانى بها ، إعلنها فإن الأحداث التى سوف تأتى بعد إعلانك بها ستؤكد أن حسبك فى مكانه الصحيح.

و لله المثل الأعلى ، فأنت إن قلت: حسبى نصرة فلان (أى تكفينى نصرة فلان)، فإنك تثق فى قدرة فلان هذا.

إعلن يا محمد و قل: حسبى الله ، برصيد لا إله إلا هو.

عليه توكلت ، و لم يقل توكلت عليه إذ الأخيرة تقبل العطف ، أما الأولى فحصرت التوكل على الله وحده سبحانه و تعالى.

● سادساً: و من يتوكل على الله فهو حسبه

التوكل: جوارح ، قلوب ، جوارح تعمل بالأسباب ، قلوب معلقة بالله تعالى.

فمن يتوكل على الله فى أمر دينه و دنياه ، و يعتمد على الله فى جلب ما ينفع و دفع ما يضر ، فهو حسبه : أى أن الله كافيه هذا الأمر الذى توكل عليه فيه ، و لكن ...

قد تقتضى الحكمة الإلهية تأخير هذا الأمر إلى الوقت المناسب . فلا تقلق أيها المتوكل لأن الله بالغ أمره «إن الله بالغ أمره» لابد من قضاء أمره و نفاذ قدره . و لكن : قد جعل الله لكل شىء قدرا: وقتا و مقداراً.

فتوكل على الله توكل الواثق فى قدرة الخالق جل وعلا ، وتوكل الهادئ المطمئن إلى جناب الله سبحانه وتعالى .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (65)الأنفال .

● أولاً: معنى حَرِّضِ:

الحث ، إثارة الحماسة ،الإغراء.

● ثانياً: أنواع الطلب:

هناك طلب نسميه نداء ، و طلب نسميه أمراً ، نهياً : إقبال – إبتعاد – عوض – قضاء حاجة.

وهناك طلب تحمله كلمة حرِّض وهو الطلب بشدة.

● ثالثاً: أصل مادة الفعل حَرِّضِ

ح – ر – ض ، و معناها القرب من الهلاك ﴿ قَالُواْ تَاللَّه تَفْتَؤا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أى حتى تقترب من الهلاك أو تهلك بالفعل.

ومثل هذه الأفعال تاتى و فيها معنى الإزالة – إزالة الاشتقاق و ذلك بتشديد الحرف الأوسط أو إدخال الهمزة عليها ، وهنا تم تشديد الحرف الأوسط حرِّض أى إزالة القرب من الهلاك فيكون معنى النداء إذاً:

اطلب منهم يا محمد أن يزيلوا قربهم من الهلاك بالقتال و الجهاد فى

سبيل الله ، لأنهم إن لم يجاهدوا فى سبيل الله لتغلب عليهم أهل الكفر. فأهل الكفر يعيشون فى الأرض بمنهج السيطرة و الغلبة و الجبروت ، والإقصاء وإذلال الأخر ، و حين يجاهدهم المؤمنون فإنما ليوقفوهم عند حدهم.

● رابعاً : عُدة المقاتلين

الصبر (عشرون صابرون)

● خامساً : المعيار الإيمانى فى الجهاد

واحد إلى عشرة ، أى أن القوة الإيمانية تجعل من قوة المؤمن ما يعادل قوة عشرة من الكفار.

من الذى وضع هذا المعيار؟ الله تبارك و تعالى ، خالق البشر ، خالق القوة و المَلَكات.

أين الإيجاز؟ لابد من ملاحظة واقع الإسلام حين نزول الأيات ، فقد كانت هناك سرايا لا تقل عن عشرين مقاتلا ، و لا تزيد على مائة.

● سادساً: علة هذا المعيار الإيمانى

«بأنهم قوم لا يفقهون»

الفرق بين المؤمن و الكافر هو الفقه !

المؤمن يعرف طريقه محددٌ لمركزيته ، يفقه منهجه ، يفقه حقيقة الألوهية ، يفقه معنى العبودية ، يفقه معنى الاستخلاف فى الأرض لتكون كلمة الله هى العليا ، يفقه أن الدنيا ممر و أن الأخرة مستقر.

أما الكافر فحين يقاتل فإنه لا يعتقد فى الأخرة ، و ليس له إلا الدنيا و

يخاف أن يفقدها ، و لذلك نجد أن خالد بن الوليد يقول للفرس :

أتيتكم برجال يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة.

هذا هو الفرق : الفقه .

« إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، و ترجون من الله ما لا يرجون» فقد تستوون فى الألم والوجع ولكنكم لا تستوون فى الرجاء ، لأنكم قومٌ تفقهون .

« قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين» ، فالمؤمن سيموت والكافر أيضا سيموت ، ولكن شتان بين موتتان ، فالمؤمن تنتظره الشهادة (إحدى الحسنيين) فَيُسَر ، والكافر سيفقد الدنيا فيسوءه الموت .

فالفقه إذاً هو الذى جعل هذا الفارق الهائل بين المؤمن والكافر : واحد إلى عشرة .

● سابعاً: واحد لإثنين

﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

فقد راعت هذه الآية حالات الضعف البشرى و حسبت لها حسابا ، فتكون النسبة:

واحد لعشرة هى الأصل ، و فى أضعف حالات المسلمين الصابرين تكون واحد لإثنين.

و عوامل الضعف كثيرة : الإقبال على الدنيا ، كثرة الفتن ، فقدان البوصلة ، إهتزاز المركزية ... إلخ.

ونلاحظ هنا أن العُدة كذلك هى : الصبر .

● **ثامناً: كيف حرّض الرسول صلى الله عليه و سلم المؤمنين؟**

قوموا إلى جنة عرضها السموات و الأرض

فقال عمير بن الحمام : عرضها السموات والأرض؟

قال صلى الله عليه و سلم: نعم.

قال: بخ بخ.

قال صلى الله عليه و سلم: ما يحملك على قول بخ بخ؟

قال: رجاء أن أكون من أهلها.

قال صلى الله عليه و سلم: فإنك من أهلها.

فألقى تمرات فى يده و قال: لئن أنا حييت حتى أكلهن إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قُتل. رواه مسلم.

عمير أحس أنه سيستغرق وقت طويل فى أكل هذه التمرات (مع أن الوقت لن يزيد على دقائق معدودة) ولكنه - رضى الله عنه - أحس أن هذه الدقائق ستؤخره عن الأخرة ، فإن كان ولابد فليقضى هذه الدقائق فى الجنة .

فمابال من يضيّع الساعات التى تؤخره عن الجنة والغرس لها ؟ فما بال من يضيّع السنين ؟ فما بال من يضيّع عمره كله ؟؟

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ - سورة الأنفال (70)

﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ سورة الأنفال (71)

• هذه الآية نزلت فى أسارى بدر و كان من جملتهم العباس بن عبد المطلب عمّ النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما طُلب منه الفداء (أى أن يفدى نفسه من الأسر فى مقابل مال يدفعه) ادّعى أنه أسلم قبل ذلك ، فلم يسقطوا عنه الفداء ، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أعلم بإسلامك ، فإن تكن كما تقول فالله يجزيك بذلك ، وأما ظاهر أمرك فكان علينا (أى كنت محاربا لنا) ، فافد نفسك و ابنى أخويك نوفل وعقيل. ففعل.

• الدروس المستفادة من هذا النداء :

• تحسسوا قلوبكم

• السابق فينا سابق بقلبه لا بجوارحه ، و الساعى لله تعالى يسعى بحبه وذله وإنكساره بين يدى ربه. نريد ثورة قلبية حقيقية ، فلابد من تخلية القلوب.

• قال تعالى : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ آل عمران-154

ليبتلى الله ما فى صدوركم : يختبر ما فيها من الخير و الشر.

ليمحص ما فى قلوبكم: يكشف ما فيها من النفاق أو الاخلاص.

• كفار أُسروا و وقعوا فى الأسر فى أيدى المسلمين ، فمنهم من يقول : إنى كنت مسلماً و كان فى قلبى خير فقال الله لنبيه صلى الله عليه و سلم « قل لمن فى أيديكم من الأسرى ...»

• سل نفسك : هل قلبى ملئ بالخير ؟ أم ملئ بالشر والضغينة والرغبة فى الإنتقام ؟؟ وهل هى رغبة حقيقية فى القصاص أم أنها رغبة فى الإنتقام والإقصاء متخفية خلف القصاص ؟؟ نحتاج فى هذه الظروف العصيبة التى تمر بها بلادنا أن نتحسس قلوبنا مع كل موقف ومع كل ردة فعل.

• إشحن قلبك

إشحن قلبك بطاقة الخير ، عبء قلبك بمشاعر الرحمة والحب والسلام و التسامح والعفو ، إملأ قلبك بالنوايا الحسنة ، إمضى وقتاً طويلا فى ذلك ، قاوم كل مشكلة بحزمة من النوايا الجميلة ، لا شىء يهزم الشر مثل النوايا الطيبة الخيرة ، إذا اجتمعت عليك المشاكل فاجتمع أنت عليها بطاقات من الخير والتفاؤل والإيجابية.

• حسن الظن بالله

قال العباس رضى الله عنه: هذا خير مما أخذ منى ، و أنا أرجو أن يغفر الله لى . (و إنى لأرجو المغفرة التى وعدنا الله عز و جل.)

إنه الرجاء فى الله ، إنه الظن الحسن بالله ، كلنا مذنبون ، و كلنا رجاء و أمل أن يغفر الله لنا الذنوب و يرحمنا و يدخلنا الجنة برحمته. (ثقة ، يقين ، إطمئنان)

فالمقصد أن تتعلق القلوب بالله وحده ، و سترون العجب. لا تعلق قلبك بالله لتختبره عز وجل ، بل يتعلق قلبك بالله تبارك وتعالى رضاً وحباً وإختياراً. قلب مركزيته الله لا يتعلق بغير الله.

• المنهج الربانى فى التعامل مع المخطئين

مع شدة المنهج الربانى فى التعامل مع الأسرى من خلال موافقة القرآن لرأى عمر رضى الله عنه (والذى كان يرى قتل الأسرى) ، إلا أننا نلمس هذه اللفتة الندية و التى تؤكد لنا أن المنهج الربانى ليس مبتغاه إعمال آلة القتل و لا إزهاق الأرواح (إلا لضرورة و إلجاءٍ لا مناص منه) ، فهو يلتفت إلى هؤلاء الأسرى المغلولين فى أصفادهم ، المنكسة رؤوسهم ، و هم يتوقعون أن تُفصل رؤوسهم عن أجسادهم ، يقول لهم فى رحمة و ود : « إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا «

فباب الرجاء مفتوحاً أمامكم للتوجه و الإنابة بشرط أن تغيروا ما بأنفسكم.

إنه المنهج الربانى فى التعامل مع المخطئين ، و أين هذا المنهج من واقع كثير من المسلمين الذين يبدعون و يكفرون ثم يقتلون و يذبحون لأدنى شبهة أو تأويل.

أين هم من قوله تعالى « قل للذين كفروا إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف»

إن المنهج الربانى فى واد ، و واقع كثير من المسلمين فى واد أخر.

انتبه!

إن الإسلام إنما يستبقى الأسرى لديه ، ليلمس فى قلوبهم مكامن الخير والرجاء والصلاح ، و ليوقظ فى فطرتهم أجهزة الإستقبال و التلقى و التأثر و الاستجابة للهدى ، لا يستبقيهم إنتقاما و لا ليسخرهم إستغلالا كما كانت فتوحات الفرس و الرومان وما تفعله فى الأسرى الذين يقعون فى أيديهم .

إنّ الإرسال الربانى الحامل لمشاعل الهداية يبث إرساله على الدوام ، ولكن المشكلة تكمن فى أجهزة الإستقبال ، فلو تم ضبطها لأحسنت الإستقبال .

(6)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ التوبة (آية 73) – التحريم(9)

هذا هو النداء الوحيد فى هذه السلسلة و الذى تكرر مرتين فى كتاب الله عز و جل.

● **أولاً: تأديب أعداء الله**

إذا كان إنسان بذل فى سبيل هداية قومه كل جهد ، و سلك معهم كل طريق، و جرَّب معهم كل وسيلة ، فذلك الإنسان هو ...... محمد صلى الله عليه و سلم.

فقد إستنفذ كل أساليب الدعوة ، و لمس من الناس كل جانب ، و نفَّذ أمر ربه كاملا:

«ادع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة و جادلهم بالتى هى أحسن»

ولكنهم مع ذلك تمردوا....... و تحجرت قلوبهم ..... وعميت بصائرهم ..... وأخذ العناد بخناقهم ...... ، فلم يعد يجدى معهم غير التأديب المادى بإستعمال السيف والغلظة فى القول و التوبيخ ، فالكافرون يردعهم السيف ، والمنافقون يوقفهم عند حدهم التوبيخ و تهُزُّ من كبريائهم الغلظة بإقامة الحجة عليهم ردعا لهم و إظهارا لمكرهم.

وفى النهاية يُخبر تعالى بأن جهنم مأوى هؤلاء و أولئك. «إن الله جامع المنافقين و الكافرين فى جهنم جميعا»

● ثانيا: مفردات النداء

• جاهد : على وزن فاعل ، فلابد أن تحدث مفاعلة بين الرسول صلى الله عليه و سلم و من اتبعوه و بين أئمة الكفر والنفاق والفساد فى المجتمع.

و لابد أن يستعد الرسول و المؤمنون بمنهجه لتحمّل الإيذاء من غير المؤمنين بالمنهج ، لأن الكفار منتفعون بالفساد و لكى يستمر هذا الانتفاع ، لابد أن يقف الكفار ضد حَمَلَة منهج الحق و أن يقاوموهم ليضمنوا لأنفسهم إستمرار الميزات التى يعطيها الباطل لهم. وهذا الملمح يعطينا تصور عن طول أمد المعركة وتنوع أساليبها من جانب ثلة المنتفعين بالفساد والمستفيدين من الباطل ، فهم لا يتورعون عن إلصاق كل تهمة ورذيلة بمعسكر أهل الحق ، بل ويتهمون أهل الحق بالفساد ، ألم يقل فرعون قديما عن موسى عليه السلام «إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد» ؟؟ حقا ، إن لم تستح فافعل ما شئت !

• الكفار : الكافر هو الذى جحد الإيمان بقلبه و أعلن الكفر بلسانه.

• المنافقين: المنافق هنا هو من كفر فى باطنه و أعلن الإسلام فى ظاهره و هذا هو الذى يجب أن نحذر منه أشد الحذر لأننا لا نعرفه فنتقى شره مثل الكافر. فالكافر أشد وضوحا فى كفره ومعاندته للحق ، أمّا المنافق فملتوٍ ويتلاعب بالألفاظ ويحترف التدليس .

• جاهد الكفار و المنافقين : فالحق سبحانه و تعالى يوضح لرسوله صلى الله عليه و سلم إن العداوة التى سيواجهها و هو يُبشر بمنهج الله ستأتيه من إثنين : من كافر أو منافق ، و النفاق ظاهرة مرضية فى المنافق و لكنها دليل قوة للمؤمن الذى ينافقه ، وهذا فقه دقيق ينبغى أن يلحظه المؤمن ، فكلما زاد عدد المنافقين فى المجتمع ، كلما دلّ ذلك على قوة أهل

الإيمان فى نفس المجتمع.

• واغلظ عليهم: الغلظة نقيض الرأفة و هى شدة القلب فى إحلال الأمر بصاحبه ، و يغلظ عليهم لإيضاح المصير الذى ينتظرهم ، و لا تأخذك بهم رأفة لأن الرأفة قد تغرى بالذنب.

قال تعالى فى سورة النور : «الزانية و الزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة و لا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم الأخر».

قال بن عباس رضى الله عنهما : أُمر بالجهاد مع الكفار بالسيف و مع المنافقين باللسان و شدة الزجر و التغليظ.

• و لكن هل غلظة الرسول صلى الله عليه و سلم معهم تعفيهم من عقاب الأخرة؟

نقول : لا ، لأن الغلظة عليهم فى الدنيا لضمان سلامة حركة الحياة ، و ليعلم كل منافق أنه مفضوح من الله ، و لكن هذا لا يعفى من عقاب الأخرة. « مأواهم جهنم و بئس المصير»

ثالثاً: سورتى التوبة و التحريم

مناسبة هذا النداء فى سورة التوبة ،أنها قد شنت حملة شديدة مروعة على الكافرين و المنافقين من أولها لأخرها ، فناسب موضوع السورة أن يأتى هذا النداء بين آياتها لزجر الكافرين والمنافقين.

أما فى سورة التحريم فقد جاء هذا النداء بعد نداءين لأهل الإيمان («يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة» ، « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا ») و نداء للذين كفروا (« يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم») .

فبعد ما تقدم النداء من أمر المؤمنين بوقاية أنفسهم و أهليهم من النار ، و بالتوبة النصوح ، كان لابد من توفير الحماية للمحضن الذى تتم فيه الوقاية من النار (وهو المجتمع المسلم) فلا تترك العناصر المفسدة الجائرة الظالمة تهاجم المعسكر الإسلامى من خارجه كما كان الكفار يصنعون أو أن تهاجمه من الداخل كما كان المنافقون يفعلون ، فناسب ذلك أن يأتى نداء مستقل للكافرين وأخر لتهديدهم مع المنافقين.

● **رابعاً: سنة الله تعالى فى الغلظة و الرفق:**

على المجتمع المسلم أن يعى و يفهم هذه السنة جيداً:

فإذا كانت طبيعة الفظاظة و غلظة القلب تنفر الناس حتى من رسول الله صلى الله عليه و سلم ولذلك عصمه الله منها « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك» ، فنفرة الناس من المسلم العادى إذا كان موصوفاً بالفظاظة والغلظة أولى.

و لا يشفع له إذا اتصف بهاتين الصفتين أنه يدعو إلى الإسلام ، وأن على الناس أن يتحملوا فظاظته و غلظته معهم لأنه يعمل لمصلحتهم و يدعو إلى الحق ، فالناس لا يؤخذون بهذا المنطق ، و لا تميل قلوبهم إلى هذه الدعوة إلا إذا مالت إلى دعاتها ، و هى لن تميل إلى دعاتها إلا إذا كانوا رحماء بالناس متواضعون معهم.

« واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين «

« عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم «

فالغلظة المأمور بها فى هذا النداء ليست غلظة فى التصرفات أو فى الأقوال ، وإنما غلظة فى إحلال الأمر (عقوبة أو غيرها) بصاحبها ، فلا يُجامل عند إيقاع العقوبة به ، ولا يُعفى عنه منها ، ولا نميل إلى الرأفة به

حينئذ ، ولكن .... كل ذلك لا يكون مبررا لغلظة القول أو فظاظته مع الكافر أو مع المنافق ، وهذا درس بليغ لأهل الإيمان فى أن يحفظوا ألسنتهم وأقوالهم من التهكم أو السخرية أو الإستهزاء أو الفظاظة مع أهل النفاق متذرعين بهذه الآية ، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا(1) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا(3)﴾.
سورة الأحزاب 1-3.

أولاً: مفردات هذا النداء

• يأيها النبى اتق الله : ليس بالضرورة أن يكون الرسول عصى ، فيأمره الله بتقواه ، لكن الحق سبحانه وتعالى ينشىء مع رسوله كلاماً بداية دون سابقة عصيان.

ثم إن الحدث يحدث فى أزمنة ثلاثة : ماض ، حاضر ، مستقبل:

فإذا طُلب من شخص فعل شىء هو مقيم عليه بالفعل فيكون المعنى أن يستمر على هذا الفعل ، كقوله تعالى فى سورة النساء «يأيها الذين آمنوا آمِنوا» فالحق جل وعلا يأمرهم بالإيمان مع أنه وصفهم و خاطبهم بلفظ الإيمان ، فيكون المعنى المراد : تجديد الإيمان و الاستمرار عليه.

فيكون معنى هذا النداء الذى بين أيدينا : واصل تقواك حاضرا ، كما فعلتها سابقاً و واصلها مستقبلاً فلا تنقطع عنها أبداً. (الثبات على التقوى)

و لكن هل يستوى الأمر لرسول الله صلى الله عليه و سلم بتقوى الله مع أمرنا نحن بتقواه؟

عندما يأتى الأمر لنا بالتقوى فيكون معناه نفذ ما فُرض عليك ، أما فى حق الرسول صلى الله عليه وسلم فيكون بمعنى ادخل فى مقام الإحسان و جدده دائماً لأن مراقى القبول من الله لا تنتهى.

• « يأيها النبى اتق الله « أى تقوى تناسب مقامك من ربك ، لذا كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم الليل حتى تتفطر قدماه ! (أفلا أكون عبداً شكوراً) مقاماً وإرتقاءً.

● ما هو معنى التقوى؟

التقوى أن تجعل بينك و بين ما يمكن أن ينشأ منه ضرر لك وقاية. وقاية من النار، وقاية من الفتن ، وقاية من النساء ، وقاية من الشهوات ...إلخ.

و لكن كيف نجعل بيننا و بين ربنا سبحانه و تعالى وقاية؟

لله تبارك و تعالى صفات جمال (غفور، رحيم ، ودود) و صفات جلال (قهار ، جبار ، منتقم)

فعلى العبد أن يجعل بينه و بين صفات الجلال وقاية و أن يظل خائفاً منها طامعاً فى صفات الجمال.

• «ولا تطع الكافرين والمنافقين» : الكافرون و المنافقون الذين يصادمون دعوة الرسل لم يقدروا على أن يحملوا أنفسهم على منهج الله و لا أن يلتزموا كما التزم المؤمنون ، فلا أقل من أن يحولوا بين المؤمنين و بين المنهج الجديد الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

و قوله تبارك و تعالى « ولا تطع الكافرين و المنافقين « تعنى أنه لا مانع من أن تطيع غيرهم من أصحاب الرأى و المشورة من المؤمنين فيما لم يأتك فيه أمر من الله.

و يفهم كذلك من قوله تعالى « ولا تطع الكافرين والمنافقين « أن غير الكافرين وغير المنافقين لا يكون لهم أمر يطاع مع أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم.

ثم إن هذا الأمر بعدم طاعتهم و هم القادة الصناديد (أو هم فى مقام النخبة) ومازالت الدعوة وليدة تحتاج إلى مهادنة مع أعدائها و ربما يقول قائل : ولِمَ لا يهادنهم رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى يشتد عود الدعوة؟

الحق تبارك و تعالى يرفض هذه المهادنة و يرفض أن يعتمد رسول الله صلى الله عليه و سلم إلا على الله ، و لذا قال عز و جل فى الآية الثالثة : « و توكل على الله و كفى بالله وكيلا «

- « إن الله كان عليما حكيما « : العلم يعطيك قضايا الخير كله ، و الحكمة أن تضع هذه القضايا فى موضعها.
- « و اتبع ما يوحى إليك من ربك» : الوحى إعلام بخفاء.

فيكون ملخص النداء :

أمربالتقوى والثبات على الحق يؤدى إلى إعلاء منهج الحق هذا يؤذى أهل الفساد والباطل فيحاولون صرفك عن منهج ربك فعليك حينئذ أن ترد الأمر إلى ما يُوحى إليك.

الفرق بين المؤمن و المنافق:

المؤمن إذا قيل له اتق الله تواضع ...

و المنافق إذا قيل له اتق الله « أخذته العزة بالإثم « أنكر أن يوجه إليه هذا القول ، و إستكبر أن يوجه إلى التقوى ، و تعاظم أن يؤخذ عليه خطأ .

العزة بالإثم : أن يستعز بالإجرام والذنب والخطيئة.

فاللهم اجعلنا من عبادك المتقين.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا(28) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ الأحزاب (29،28)

أولا: موضوع النداء :

القدوة فى الإسلام لها حساب خاص.

أزواج النبى صلى الله عليه و سلم سبق فى أوائل سورة الأحزاب تسميتهم بـ «أمهات المؤمنين» ، و لهذه الأمومة تكاليفها ، و لهذه المرتبة السامية التى استحققن بها هذه الصفة تكاليفها . و لمكانتهن من رسول الله صلى الله عليه و سلم تكاليفها. و هذا النداء المبارك بيان لشيء من هذه التكاليف.

ثانياً: موضع النداء

هذا النداء جاء فى الآية 28 من سورة الأحزاب بعد حديث السورة عن غزوة الأحزاب و غزوة بنى قريظة ، فما سر هذه النقلة الكبيرة فى سياق السورة؟

سياق الحديث فى الغزوتين انتهى بقوله تعالى « و أورثكم أرضهم و ديارهم و أموالهم وأرضاً لم تطئوها « ، فربما طلبت زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم أن يمتعهنّ و ينفق عليهنّ مما يفتح الله عليه من خيرات هذه البلاد.

فجاء هذا النداء ، أو آية التخيير....

ثالثا: سبب النزول

فى صحيح مسلم و غيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجب عن أصحابه ، و جاءوا فلم يؤذن لهم ...

فقال عمر : لأكلمن رسول الله صلى الله عليه و سلم لعله يضحك : يا رسول الله ، لو رأيت ابنة زيد (زوجته) سألتنى النفقة آنفا فوجأت عنقها! فضحك النبى صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه و قال : هن حولى يسألُنَنى النفقة ....

فبدأ صلى الله عليه وسلم بعائشة رضى الله عنها ، فقال : إنى أذكر لك أمراً ، ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك قالت: وما هو؟ فتلا عليها هذه الآية. فقالت : أفيك أستأمر أبوىّ؟ بل أختار الله و رسوله.

رابعا: مفردات النداء :

لأزواجك : خمسة من قريش : عائشة ، حفصة ، أم حبيبة ، سودة ، أم سلمة ابنة أبى أُمية ، و من غير قريش أربعة : صفية ، ميمونة ، جويرية ، زينب بنت جحش من بنى أسد.

إن : الدالة على الشك و الندرة ، و فى هذا إشارة إلى عدم المبالغة فى إتهامهن ، فالأمر لا يعدو أن يكون خواطر جالت فى أذهان البعض.

تردن الحياة الدنيا و زينتها : تؤثرن و تقدمن لذيذ الطعام و الشراب و جميل الثياب و حلى الزينة و الترف على الاشتغال بالطاعات و الزهد و التقرب إلى الله تعالى.

خامسا : عبر وعظات من هذا النداء

• هذا النداء يحدد التصور الاسلامى الصحيح للقيم ، فليست المسألة

أن يكون - صلى الله عليه وسلم- عنده أو لا يكون ، إنما أصل المسألة هى إختيار الله و رسوله و الدار الأخرة كلية ، أو إختيار الزينة والمتاع.

• هذا النداء يحسم فى القلب المسلم كل تردد و كل تذبذب و كل لجلجة بين قيم الدنيا و قيم الأخرة ، بين الاتجاه إلى الأرض و الاتجاه إلى السماء.

• هذا النداء يصور لنا حقيقة حياة الرسول صلى الله عليه و سلم : زوج- زوجة – والد الزوجة – النفقة..... (حياة طبيعية ، يحياها أى بشر ، وليست حياة الملوك أو الأقاصرة أو الأكاسرة ، وليست حياة الخدم والحشم والحرس والقوات الخاصة ، بل حياة بسيطة بين زوج وزوجاته اللاتى يطالبن بالتوسعة عليهنّ فى المعيشة ، وقد يتدخل والد الزوجة وقد لا يتدخل ، إنها حياة سيد الخلق صلى الله عليه وسلم) .

• موقف زوجات الرسول صلى الله عليه و سلم يعبر عن مسائل شعورية و ميول بشرية ، تُصَفّى وتُرَفّع و تتعالى و لكنها لا تخمد و لا تكبت و لا تضغط ، فليس فى الإسلام كبت أو ضغط أو إهدار للرأى ، بل فى الإسلام حرية ، وتزكية ، وتوجيه وإرشاد إلى الأَولى .

• حب النبى صلى الله عليه و سلم لعائشة رضى الله عنها ، فيبدأ بها ، و يطلب منها ألا تتعجل ، ويساعدها على إتخاذ القرار بإستشارة والديها أولا...

• بيت النبوة غير بيت المُلك ، بيت النبوة يقوم على الكفاف و لو كان رب البيت سيد الجزيرة و إمام الناس ، و من معه يجب أن يحملن معه أعباء المنصب ، فالمقام مقام تكليف وليس مقام تشريف.

(9)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ الأحزاب 45-48

أولا: موضوع النداء :

هو شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفاته وطبيعة رسالته.

ثانياً: مفردات النداء

- يأيها النبى : صفة النبوة
- إنا أرسلناك : صفة الرسالة
- شاهدا : على من أرسلناك إليهم ، فاعمل أيها المسلم ، فالشاهد لن يكذب أو يزور ، فهو ليس بشاهد زور ، بل هو شاهد حق ، والشاهد هو الذى يثبت الحق لصاحبه أو ينفى الحق عن مدعيه (شاهد إثبات أو شاهد نفى) ، فهو شاهد على أمته بما فعلوه من خير و شر.

« لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا »

« فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد و جئنا بك على هؤلاء شهيدا »

- مبشرا : البشارة هى الإخبار بالخير قبل أوانه.
- نذيرا : الإنذار هو التخويف بِشَر لم يأت أوانه.
- داعيا : إلى الله ، لا إلى دنيا ، و لا إلى مجد ، و لا إلى قومية و لا إلى

حزبية و لا إلى عصبية و لا إلى مغنم و لا إلى سلطان ولا إلى جماعة ولا إلى أيديولوجية ولا إلى جنسية أو عرقية .

• بإذنه : أى بأمر من الله ، فما هو بمبتدع و لا مخترع و لا متطوع و لا بقائل من عنده شيئا (و لا ننسى أن هذه الأيات قد نزلت بعد آيات إلغاء التبنى).

• سراجا : و لم يوصف بالشمس ، فهو نور هادىء يسطع منه و ينير و يؤخذ منه دون أن ينقص نوره. أي بدعوته تتعرَّف إلى الله، وبصحبته يمتلئُ قلبك من نور الله، إذاً له مهمّتان صلى الله عليه وسلم : مهمَّة التبليغ ومهمة التزكية ، كما قال تعالى فى سورة التوبة : ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ (103))

• وبشر المؤمنين : المؤمن إذا بشَّره النبي عليه الصلاة والسلام، أو إذا بشَّره القرآن بجنَّةٍ عرضها السماوات والأرض، هذه البِشارة تعني أنها تمتص كل متاعبه. مثلا : لو وُعِد الإنسان بمبلغ كبير سيقبضه بعد عام، في هذا العام هو من أسعد الناس، مع أنه ما قبض من المبلغ شيئاً. ولكنه دخل بالوعد القطعي، كل قضاياه تحل، يقول لك: غداً أفعل كذا، أفعل كذا، فالمؤمن حينما يوقن أنه من المبشَّرين بالجنَّة . طبعاً القرآن بشَّره إذا ثبت على ما هو عليه . لا يغيِّر الله ما بقومٍ حتَّى يغيِّروا ما بأنفسهم ، فما أعظمها من بشارة وما أهنأه من حال.

• فضلا كبيرا : الكبير يقول لك: فضل كبير، ولله المثل الأعلى ، فلو طفل عمره ثلاث سنوات قال لك: أنا معي مبلغ كبير، فكلمة كبير من طفل تعني حجماً صغيراً، أما إذا قال لك إنسان يملك أموالاً طائلة: أنا معي مبلغٌ كبير، أو سأعطيك شيئاً كبيراً فهنا الأمر يختلف ، فما بالك لو كان القائل هو الله الكبير المتعال ؟؟ فلذلك هذا وصفٌ دقيق: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾

• ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا﴾ :أي ﴿ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ سورة الأنعام 91

وهذه قد مرت بنا فى النداء رقم 7 فى مطلع سورة الأحزاب.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ الأحزاب – آية 50.

مفردات النداء

• «يأيها النبى» : كلمة النبى تكررت فى هذه الآية ثلاث مرات ، فى مطلع الآية ، « إن وهبت نفسها للنبى « و لم يقل لك ، « إن أراد النبى « و لم يقل إن أردت ، و هذا الخطاب أعلى مستويات التكريم له صلى الله عليه وسلم.

• «إنا أحللنا لك» ما معنى أحللنا هنا مادام الحديث عن أزواجه صلى الله عليه و سلم؟

معناها أنها كانت فى منطقة محرمة ثم أحلها الله له ، و هذا المعنى يتضح بقوله تعالى بعدها:

«اللاتى أتيت أجورهن» كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخذ بالحل أولاً ، بدليل أنه قد أتى الأجر و المهر.

فكأن الحق سبحانه و تعالى يعطى نبيه صلى الله عليه وسلم فى كل مراحل سيرته أزكى و أطهر وأنبل المواقف. فبعض الرجال قد يسمى المهر و يدخل بزوجته دون أن يدفع شيئا و يكون المهر كله أو بعضه مؤخرا.

• «أزواجك» جاءت بصيغة المذكر و لم يقل زوجاتك ، و ذلك لأن الزوج يُطلَق على الرجل و على المرأة.

• «اللاتى أتيت أجورهن» أى دفعت لهن صداقهن أو مهورهن.

و هذا القدر مشترك بين النبى صلى الله عليه و سلم و بين أمته.

• «و ما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك» مِلك اليمين يُقصد به المرأة المملوكة ، مما أفاء الله عليك ، معناه أن مِلك اليمين بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم جاء من طريق شرعى ، جاء من الفيء و المراد به أسرى الحروب (كالسيدة صفية و السيدة جويرية) . و هذا قيد للنبى صلى الله عليه وسلم لأن من الإماء حرائر أُخذن عنوة أو سرقن ، و منهن من بيعت فى سوق الرقيق على أنها آمة ، أمّا النبى صلى الله عليه وسلم فلا يحل له من ملك اليمين إلا ما كان من الفئ .

• «و بنات عمك و بنات عماتك و بنات خالك و بنات خالاتك» وهنّ الأقارب من جهة الأب أو الأقارب من جهة الأم . و معنى الآية أنه لا يباح من الأقارب من النساء غير هؤلاء الأربع و ما عداهن من الفروع أو الأصول فإنه لا يباح. يقول الإمام بن كثير رحمه الله : هذه الآية عدل وسط بين الإفراط و التفريط ، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان بين الرجل و بينها سبعة أجداد فصاعدا ، و اليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه و إبنة أخته و من المعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن تحته أحد من بنات عمه أو عماته أو خاله أو خالاته.

و قد جاء العم و الخال بصيغة المفرد ، بينما العمات و الخالات بصيغة الجمع ، و ذلك لأن العم و الخال استعمل إستعمال أسماء الأجناس الدالة على متعدد ، مثل كلمة الإنسان مفرد و لكنها تدل على كل إنسان من بنى آدم.

و هذا ، و الذى سبقه من القدر المشترك بينه صلى الله عليه و سلم و بين أمته.

• «اللاتى هاجرن معك» قيد لحل هؤلاء للرسول صلى الله عليه و سلم ، و أما غيره فلا.

و لكن لماذا هذا القيد فى حقه صلى الله عليه و سلم؟

ذلك لأن المهاجرات أكمل إيماناً ، و أوفى تضحية فى سبيل إعلاء كلمة الحق و تكثير جمع المسلمين فى دار هجرتهم.

• « و إمرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى « و امرأة مؤمنة لأن الهبة هنا خاصة بالمؤمنة ، فإن كانت كتابية لم يصح.

و السؤال : هل تحل له بمجرد أن تهب نفسها له؟ الجواب: لا ، بل لابد أن يقبل هو صلى الله عليه وسلم هذه الهبة ، قال تعالى:

• «إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها» هذه الآيات التى توالى فيها شرطان كآية «إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم» و قد اختُلف فى هذه المسألة ، فبعض العلماء على أن الرسول صلى الله عليه و سلم لم يأخذ إمرأة بهبة أبدا ، و بعضهم قال بل عنده أربع موهوبات : ميمونة بنت الحارث ، زينب بنت خزيمة ، خولة بنت حكيم ، أم شريك.

و الهبة هنا معناها أن يتزوجها بغير صداق.

• «خالصة لك من دون المؤمنين « هنا قيد ، فلا يحل ذلك إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

• «قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم» أى ما فرضنا على المؤمنين من أحكام فى زوجاتهم كأن لا يزيد العدد على أربع ، و ألا يتزوج الرجل إلا بولى و مهر و شاهدين ، فلكل حكمه و قانونه، فلك يا محمد حكم يناسبك ، و لأمتك حكم.

• «و ما ملكت أيمانهم» أى ما فرضنا على المؤمنين من أحكام فى ملك اليمين كأن تكون كتابية أو مسلمة و أن تُستبرىء بحيضة أولا ، و

أن تكون بشراء أو من فيء.

• «لكيلا يكون عليك حرج» فهذا من جملة التخفيف و رفع الحرج عنه صلى الله عليه و سلم و الذى يحتاج فى أمر دعوته و رسالته إلى مزيد من السعة لتأييد موقف الرسالة و التفاف الأسر من حولها رعاية لحق المصاهرة ، و تقليلا للكيد له وللمؤمنين ، و لإيضاح بعض الجوانب التشريعية كذلك.

• «و كان الله غفورا رحيما» إيناس للرسول صلى الله عليه و سلم و لمن معه من المؤمنين.

الدروس المستفادة من النداء

• هذا النداء يتضمن الطبقات التى تُختار منها أمهات المؤمنين ، فليست كل إمرأة تصلح لأن تكون زوجة لسيد الخلق ، و ليست كل إمرأة تصلح أن تكون زوجة لعظيم ، و الكريم يحتاج إلى كريمة تعينه فإن لم تكن عونا له فلا تكن عبئا عليه ، و قد عانى نوح و لوط عيهما السلام من زوجتيهما الكثير.

• من جملة خصائصه صلى الله عليه و سلم أنه قد فُرض عليه أمور كقيام الليل ، و أبيح له أمور كنكاح الواهبة بغير صداق ، و حُرم عليه أمور كحرمة الصدقة مثلاً ، فلا يحل له أن يأكل من الصدقات أو يأخذ منها.

• القيد على الأمة فى الزواج فى العدد (فلا يزيد العدد على أربعة فى وقت واحد) ، أما القيد على الرسول صلى الله عليه وسلم ففى المعدود أى فى هؤلاء التسعة : عائشة ، حفصة ، أم حبيبة ، سودة ، أم سلمة ، صفية ، جويرية ، ميمونة و زينب رضى الله عنهن أجمعين.

• النداء تكريم لأمهات المؤمنين بإستبقائهن بعد أن آثرن الله رسوله والدار الأخرة.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (59) (الأحزاب)

أولا : سبب النزول:

قال بن الجوزى فى زاد المسير : سبب نزولها أن الفساق فتيان سوء يتسكعون فى الطرقات إبتغاء الريبة كانوا يؤذون النساء (يتحرشون بهن) إذا خرجن بالليل ، فإذا رأوا المرأة عليها قناع تركوها وقالوا هذه حرة ، و إذا رأوها بغير قناع قالوا : آمة فنزلت هذه الآية . ذكره السيوطى عن السدى.

ثانيا : خلاصة الآية

• قال صاحب الظلال : و من ذلك ترى الجهد المستمر فى تطهير البيئة العربية و التوجيه المطرد لإزالة كل أسباب الفتنة و الفوضى ، و حصرها فى أضيق نطاق ، ريثما تسيطر التقاليد الإسلامية على المجتمع كله و تحكمه . و الحق أن المدنية الحديثة قد يسرت الفتن للقاصى و الدانى ، بل وكما قال الشيخ محمد الغزالى أن المدنية الحديثة قد يسرت الفتن للراغب و العازف ، و المحور الذى تدور عليه حياكة الملابس الأن هو الإغراء المحرم و لا مكان هناك لتقوى القلوب.

• القدوة فى الإسلام أمر مهم ، فما لم يكن للمؤمنين قدوة فلن يفلحوا ، و أزواج و بنات النبى صلى الله عليه و سلم يجب أن يكنّ قدوة لنساء المؤمنين.

و النبى صلى الله عليه و سلم – كما تعلمون – له مهمتان : مهمة التبليغ و مهمة القدوة ، فالتبليغ وحده لا يكفى إن لم تكن القدوة الحسنة ، السيرة الصالحة ، و المثل الأعلى ، و الأسوة التى يُتأسى بها.

• عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو أمير للمؤمنين كان إذا أمر الناس بأمر جمع أهله و قال :

إنى قد أمرت الناس بكذا و نهيتهم عن كذا ، و الناس كالطير إن رأوكم وقعتم وقعوا ، و أيم الله لو أتانى أحدٌ منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه منى.

• الدعوة إلى الله عز و جل تقوم على البيان و على القدوة ، و البيان تولاه النبى صلى الله عليه و سلم و لكن القدوة يجب أن تكون فى شخصه و فى أهل بيته و فى نسائه و فى بناته.

ثالثا : مفردات النداء :

• «يأيها النبى قل لأزواجك و بناتك « : الأمر توجه أولا لأزواج النبى صلى الله عليه و سلم ثم لبناته وهذا يعنى أن الرسول صلى الله عليه و سلم لا يأمر أمته بشىء هو عنه بمنأى ، إنما يأمرهم بشىء بدأ فيه بأهل بيته و هذا أدعى لقبول الأمر و تنفيذه.

و نلحظ ذلك فى خطبة الوداع ، فعندما أسقط صلى الله عليه و سلم ربا الجاهلية بدأ بربا العباس عمه ، و عندما أسقط ثارات الجاهلية بدأ بثأر بن عمه الحارث بن ربيعة . و هكذا...

• «قل» هذا دليل على أن الرسول صلى الله عليه و سلم كان ينقل النص الذى جاءه و الصيغة التى تكلم الله بها دون أن يغير فيها شيئاً.

و إلا فقد كان من الممكن أن ينقل الأمر لأزواجه فيقول : يا أيها النبى

أزواجك و بناتك يدنين عليهن من جلابيبهن ، و إنما نقل النص القرآنى كما أنزل عليه ، ليعلم الجميع أن الأمر من الله ، و ما محمد إلا مبلغ عن الله ، فمن أراد أن يناقش الأمر فليناقش صاحبه.

• «لأزواجك» و هن – ساعة نزول الآية – عائشة – حفصة – أم حبيبة – أم سلمة – سودة – ميمونة بنت الحارث – زينب بنت جحش – جويرية بنت الحارث – صفية بنت حُيى.

• «و بناتك» وهن : فاطمة ، رقية ، أم كلثوم.

• «و نساء المؤمنين « : كلمة نساء جمع لا واحد له من لفظه و هذا يشمل عامة المؤمنات.

• «يدنين» : الإدناء هو التقريب ، تقريب شىء من شىء ، و من ذلك قوله تعالى : «قطوفها دانية» أى قريبة التناول سهلة الجنى.

فالإدناء إذا هو تقريب شىء إلى شىء ، فالإدناء يتعلق بكلمة (إلى) ، فيكون المعنى يدنين جلابيبهن من الأرض لتستر الجسم ، أما إذا تعلق الإدناء بكلمة (على) كما جاء فى النداء فهو فى معنى الارخاء و الإسدال ، أى أن الجلابيب ملفوفة حول الجسم مسدولة حتى الأرض.

فالمعنى هنا دقيق : فالإدناء إذا تعلق بـ (إلى) كان معناه التقريب ، و إذا تعلق بـ(على) كان معناه الإرخاء و الإسدال.

• «عليهن من جلابيبهن» : الجلباب رداء فَضفَاض واسع يستر البدن كله و ذلك حتى لا تدع لهبوب الريح أو سرعة السير فرصة لإنحسار الثياب عنها ، فتصف أو تكشف شئ من بدنها.

و قد فهم الناس فى عهد النبى صلى الله عليه و سلم أن هذه الآية ستر الوجه و الرأس معا لأن السيدة أم سلمة رضى الله عنها قالت لما نزلت هذه الآية : خرج نساءٌ من الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من أكسية سود يلبسنها.

• و نساء الجاهلية كُنّ يضعن على رؤوسهن الخُمُر ، و يسدلنها و يرخينها إلى وراء ظهورهن ، فجاء الأمر هنا بالعكس بأن يدنين عليهن من جلابيبهن.

• «ذلك أدنى أن يُعرفن» أن يعرفن بالعفة و الصيانة فلا يتعرض لهن الفساق و لا الفجار ، و المرأة إذا بالغت فى التحجب و التصون قطعت كل طمع فيها.

أن يُعرفن أنهن عفيفات طاهرات و أنهن لا يبغين إلا ما أمر الله عز و جل به.

• «ذلك أدنى» : أدنى بمعنى أجدر ، أى هذا هو الحد الأدنى ، أى إذا تحجبت المرأة فهذا هو الحد الأدنى فى إيمانها و ليس الحد الأقصى.

الحد الأقصى : عِلمُها ، أعمالها الطيبة ، خدمتها لزوجها ، رعايتها لأولادها.

أما ألا تُؤذَى أو تُؤذِى فى الطريق ، فهذا هو الحد الأدنى ، أى هذا أقل شىء يُعرفن به صالحات عفيفات طاهرات مع أن الصلاح و العفاف و الطهر أكبر من الحجاب : نفسٌ طيبة ، نفس مطواعة ،نفس متواضعة ، نفس منصفة.

هناك صفات تعلو بالمرأة عن الحجاب ، و لكن الحجاب هو الحد الأدنى ، هذه هويتها.

• و المشكلة أن هناك كثير من المحجبات قد اكتفين بالحجاب عِوضا عن العلم ،العمل ،طاعة الزوج ،رعاية الأولاد ،الطيبة ،التواضع ،الإنصاف! و هناك كثير من غير المحجبات أردن التعويض ،أى بالغن بأشياء كثيرة لإحساسهن بالخلل فى قضية الحجاب ! و كلتا الحالتين تحتاج إلى مراجعة فهمها لدينها.

• «فلا يؤذين» متى تُؤذى المرأة ؟ الجواب : إذا ظهرت مفاتنها ، متى تؤذى المرآة ؟ إذا أبدت ما يجب أن تخفيه.

• « و كان الله غفورا رحيما» على ما سبق.

رابعا: أقوال العلماء فى الحجاب:

أكثر العلماء فى هذه الآية يتحدثون عن ما فهموه منها فابن الجوزى قال : يغطون رؤوسهن و وجوههن ، و أبو السعود يقول: يغطون وجوههن و أبدانهن ، و السُدِّى يقول تغطى المرأة إحدى عينيها ، و لكن القدر المتفق عليه بين العلماء على أن للحجاب الشرعى ستة شروط:

أن يكون ساترا لجميع البدن – أن يكون كثيفا غير رقيق – ألا يكون زينة فى نفسه أى لافتا للنظر – أن يكون فضفاضا – ألا يكون معطرا – ألا تتشبه فيه بالرجال.

خامسا : المقصود من الحجاب فى الإسلام

• ليس هو تحميل المرأة فوق طاقتها من الملابس الغليظة و الأغطية الثقيلة ، و إنما هو المحافظة عليها من الإيذاء و إحاطة بدنها بسياج من القداسة و الإجلال حفظا من الأعين المقتحمة و الألسن المبتذلة .

• القرآن الكريم عالج هذه المسألة بتدرج فأمر بستر العورات ثم بحجاب النساء ثم بغض البصر ثم بعدم إبداء الزينة للأجانب ثم بالحجاب الكامل فى سورة النور.

فكأن التدرج فى أحكام الحجاب بحسب الظروف و بحسب تطور الدعوة الإسلامية.

(12)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ الممتحنة (آية 12)

أولا : مفردات النداء :

• «يأيها النبى» : كما ذكرنا سابقا: النبوة مقام معرفة و أسوة و إقتداء ، أما الرسالة فمقام تبليغ.

• « إذا » إذا تفيد تحقق وقوع الفعل ، أما إن فتفيد إحتمال وقوع الفعل.

«إذا» فى مثل قوله تعالى : إذا جاء نصر الله والفتح ، أى أن نصر الله سيأتى لا محالة ، مجيئه حتمى.

«إن» فى مثل قوله تعالى : إن جاءكم فاسق بنبأ ، فقد يأتى وقد لا يأتى.

• «جاءك المؤمنات» و الحديث هنا عن النساء ، عن نساء مؤمنات طاهرات تركن أزواجهن و التحقن بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ينبغى أن نوازن بينهن و بين نساء تابعات لأزواجهن ولو كان الزوج كافرا أو كان فاسقا أو كان منحرفا ، تقول إحداهن : هكذا يريد زوجى ماذا أصنع أنا ؟ فهؤلاء المؤمنات المذكورات فى الآية قد وقعن فى إختبار رهيب : ضغط أسرى هائل أمام إيمان يستولى على القلب.

إذاً ، مجرد مجيء هؤلاء النساء المؤمنات إلى النبى صلى الله عليه و سلم يحمل شيئا إيجابيا ، مجيئهن فى حد ذاته عمل إيجابى ، تحركهن فى سبيل الدين عمل إيجابى.

• «يبايعنك» إستقلال المرأة فى دينها و إيمانها عن زوجها ، و من ثم مساواة المرأة للرجل فى التكليف و التشريف و المسئولية.

ولا ننسى أن الأية فى سورة الممتحنة ، فلابد من إمتحانها ، فلعلها جاءت النبى صلى الله عليه وسلم كراهية لزوجها أو لعلها شاءت أن تنتقل من مكان إلى مكان ... لعلها و لعلها ...

يبايع فعل مضارع من بايَعَ أى عاهد على أداء ما عليه ، فالمبايعة إبرام العهد ، فلا إيمان لمن لا أمانة له و لا دين لمن لا عهد له.

يبايعن ، على أى شيء ؟ على أركان الدين : وأول هذه الأركان : العقيدة.

• «على أن لا يشركن بالله شيئا» : التوحيد ، فليست القضية أن تؤمن –فقط- بأن للكون خالق ، لن تستقيم على أمر الله إلا إذا آمنت به إلها فعالا :

أن تؤمن أنه « ما لهم من دونه من ولى و لا يشرك فى حكمه أحدا »

أن تؤمن أن « والله يحكم لا معقب لحكمه « ، « و إذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له « ،

«له الخلق و الأمر» ، « خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل»

انواع الشرك: شرك جلى ، شرك خفى ، الشرك الجلى هو أن تعبد المخلوق دون الخالق ، أما الشرك الخفى فهو الرياء.

• «و لا يسرقن و لا يزنين» : السرقة للمال ، أى شهوة المال ، و الزنا كذلك شهوة ، فهما شهوتان تحركان العالم أجمع : شهوة المال ، شهوة النساء.

كيف يحصّن الانسان نفسه ؟ بالكسب الحلال ، و الشهوة الحلال (الزواج)

• «و لا يقتلن أولادهن» لا فى بطونهن (بالإجهاض) ولا بعد ولادتهن ، فقد يقتل الطفل فى بطن أمه بالإجهاض و قد يقتل بعد الولادة بالوأد ، و لكن حينما يكبر الإبن أو البنت و لا يوجهه الأب أو الأم فينحرف إنحرافا خطيرا فهذا أشد من القتل لقوله تعالى : و الفتنة أشد من القتل.

• «و لا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن و أرجلهن»

المرأة فى الجاهلية كانت تحمل إبنا و تنسبه لزوجها وهو ليس منه، تحمله بيديها.

• «و لا يعصينك فى معروف» : المعروف هو الشرع الإلهى ، هو الدين ، هو العمل الصالح هو كل ما أمر به الرسول صلى الله عليه و سلم أو نهى عنه.

• «فبايعهن و استغفر لهن الله إن الله غفور رحيم»

ثانيا : بيعة النساء:

هذا النداء الكريم و هذه الآية المباركة وردت فيها البيعة التى تُسمى ببيعة النساء.

و قد سُميت بهذا الاسم لأنه لم يؤمر فيها بجهاد لأن النساء لا يُطلب منهن جهاد.

ثالثا : فى ذكرى مولد الحبيب صلى الله عليه و سلم ، حقائق و توجيهات :

• الله عز و جل لم يخاطب النبى صى الله عليه و سلم بإسمه مطلقا لأنه سيد الأنبياء.

قال تعالى : يا عيسى بن مريم ، يا يحيى ، يا نوح ، يا إبراهيم ، يا موسى.....

و ليس فى القرآن الكريم كُلُه قوله : يا محمد! لم يخاطب الله تبارك و تعالى النبى صلى الله عليه وسلم بإسمه إطلاقا و إنما خاطبه مرتين بيا أيها الرسول ، و خمسة عشر مرة بيا أيها النبى ، و مرة يا أيها المزمل ، و مرة يا أيها المدثر.

• هذه حقيقة من الحقائق ، يعقبها توجيه ألا و هو:

أن تعظيم و توقير النبى صلى الله عليه و سلم جزء من الدين.

و جزء من الدين أيضا أن نعرف مكانته و مقامه عند الله : ففى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال : سلوا لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله و أرجو أن أكون أنا.

• الحقيقة الثانية هى أنه ينبغى علينا أن نعرف النبى صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : «أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون» أن نعرف شمائله، رحمته، عدله، محبته، إنصافه، إخلاصه ، تواضعه....إلخ.

ومن ذلك أن نعلم أن مقام النبى صلى الله عليه و سلم يعنى عدم الانقطاع عن الله إطلاقا ، قلبه موصول بالله دائما.

ففى صحيح مسلم من حديث حنظلة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال :

أما نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا و لا تنام قلوبنا ، أما أنتم يا أخى فساعة و ساعة.

فمقام النبى صلى الله عليه وسلم إتصال دائم بالله ، ومقام المؤمنين ساعة و ساعة.

(13)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ (الطلاق) (آية 1)

• سورة الطلاق تسمى سورة النساء الصغرى.

• فيها جملة أحكام تتصل بالأسرة و تعالج ما قد يعرض لها من علل و متاعب.

• و فى الحقيقة إن الطلاق يتجاوز الرجل الذى أوقعه إلى امرأته و أولادهما و أسرتيهما ، فلابد من وضع ضوابط له حتى لا يكون صدوره بإرادة منفردة فتحا لباب من الطيش و الظلم.

• وأنت عندما تتأمل آيات سورة الطلاق تلحظ أنها تناولت تفصيلات للإنفاق فى السراء و الضراء وحث على الإيمان بالغيب و الأمر بتقوى الله عز و جل و ذلك حتى يمكن تفريج الأزمات العائلية الباعثة على الشقاق بالاعتماد على الله عز و جل و مغالبة الأمر الواقع ، و كأن الإرشاد الإلهى من خلال آيات السورة لا يريد أن يتحول الطلاق إلى كارثة إجتماعية كالحة و ألا يفقد المسلمون أدبهم و تواصلهم مع هذه المحنة.

مفردات النداء:

• «يأيها النبى إذا طلقتم النساء» : النداء للنبى صلى الله عليه و سلم لأنه قائد الأمة و إمام الهدى.

و مناداة الرسول صلى الله عليه و سلم فى شأن يشيع بين أفراد الأمة كلها يشير إلى أن الأمر مهم ، و أنه يخرج من النطاق الفردى الخاص إلى النطاق الجماعى العام.

• «فطلقوهن لعدتهن» : اللام فى لعدتهن تعنى فى : أى فطلقوهن فى عدتهن ، كمثل قوله تعالى:

«هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر» أى فى أول الحشر.

و معنى فى عدتهن أى مستقبلات عدتهن ، أى لا يجوز أن تُطَلق المرأة فى حيض لأسباب نفسية ، لعلك كرهتها فى هذه الفترة بالذات ، و سبب الإثم كذلك فى هذه الحالة هو إطالة فترة العدة على المرأة ، و لا يجوز كذلك أن تطلقها فى طهر اتصلت بها فيه لأن هذا الطهر صار مظنة حمل ، فتنتظر إلى أن تحيض مرة ثانية أو تحمل إذا حدث حمل فتطول فترة العدة فى الحالتين.

فكأن الآية تقول لك : إذا أردت أن تطلق فاجتنب حالتين : حالة الحيض ، أو حالة طهر حدث فيه إتصال ، و فى ذلك كبح لجماح الرغبة فى إيقاع الطلاق و الذى يكون غالبا تحت فورة الغضب.

و العدة ثلاثة قروء ، و القرء معناه حيض أو طهر ، أى تنتظر ثلاث حيضات أو ثلاثة طهور و كأن الإرشاد القرآنى يريد لهذا الطلاق المتعجل و الذى حدث فى ساعة غضب أو ساعة كراهية أن يفتح له باباً للرجوع.

• «و أحصوا العدة» : إحصاء العدة أى ضبطها ، بالقروء إذا كانت تحيض ، أو بالأشهر إذا كانت لا تحيض ، أو بالولادة إذا كانت حاملا ، وفى إحصائها أداء لحق الله تعالى ، فالزوج لكى يعرف متى تنتهى العدة ، متى يدفع النفقة ، متى يمسك ، متى يراجع.... إلخ.

و للزوجة لتعلم ما لها وما عليها ومتى تبين من زوجها ومتى تتزوج غيره ... إلخ.

• « و اتقوا الله ربكم» أى اتقوا أن تعصوه ، اتقوا أن تخالفوا أمره ، اتقوا ألا تأخذوا بهذا المنهج القويم فى علاقاتكم بأزواجكم ، و كأن الآية تشير إلى التقيد بمنهج الله فى علاقة الإنسان بزوجته عند إنشاء هذه العلاقة وكذلك عند إنهائها .

• «لا تخرجوهن من بيوتهن و لا يخرجن» : من حقها عليك ألا تخرجها من البيت إذا طلقتها و من حقك عليها ألا تخرج من دون إذنك بعد الطلاق.

بقاء الزوجة فى بيت زوجها بعد الطلاق بكامل زينتها (دون معاشرة) يقلل من قيمة أى خلاف ويجعله يتضاءل إلى أن ينعدم.

أما لو خرجت ، فإن أى خلاف مهما بدا لك صغيرا يتفاقم .

و هذا التوجيه الإلهى رافقه تشديد ، هذا التشديد هو: نون النسوة فى قوله تعالى «بيوتهن» و كأن البيت الذى تسكنه الزوجة أضيف إليها لا إضافة تملك ، بل إضافة تشبث ، أى : أيتها المرأة تشبثى فى بيتك و لا تخرجى منه ، إن خرجت منه أسأت إلى زوجك ، إن خرجت منه تفاقم الأمر ، المشكلة إما أن تُحاصر و تُحتوى ، و إما أن تتفاقم و تنفجر.

• «إلا أن يأتين بفاحشة مُبَيِّنة « :العلماء فسروا الفاحشة بالخيانة ، و فسروها أيضا ببذاءة اللسان أو سلاطة اللسان أو السرقة ... إلى غير ذلك.

• «وتلك حدود الله و من يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه « : ما دمت لم تتعدّ حدود الله فأنت مشمول برعاية الله و حفظه و تأييده و توفيقه و نصره.

كلما كنت ورعا جعلت بينك و بين حدود الله هامش أمان . لذلك المؤمن أو المؤمنة لا يستخدم هذه الحروف الثلاثة : الطاء، اللام، القاف.

و تلك حدود الله : لا تطلق و أنت غضبان ، لا تطلق و هى حائض ، لا

تطلق فى طهر مسستها فيه ، لا تطلق إلا من ريبة ، لا تطلق و تطرد ، لا تطلق و تخرجى ، بل تشبثى ... هذه هى الضمانات و هذه هى الحدود ، و من خالف ... فقد ظلم نفسه.

• «لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً « : أمرا ... فقد يتراجعا ، فقد تزول المشكلة ، الله عز و جل قد يُحدث بعد الخصومة وفاقا ، و بعد الحقد تسامحا ، و بعد الغضب هدوءاً ، و بعد النفور ميلا.

واقع الأمة

• الطلاق لأهون سبب ، و العبث بأحكام الطلاق.

• إنتشار الطلاق البدعى (وهو أن يطلق امرأته وهى حائض مثلا أو فى طهر مسها فيه).

• الحلف بالطلاق كالماء و الهواء.

• تعليق الطلاق على أمور تافهة و فقيرة.

• سهولة الطلاق و ميوعة حدوده فى دنيا الناس جعلت الناس تنظر إلى الشرع نظرة إنكار.

• يكاد يستحيل أن تسمع إمرأة الطلاق و تبقى فى البيت.

• الإعلام و الأفلام و تصوير المحلل ، و الذى هو فى الشرع التيس المستعار ، له دور كبير فى العبث بأحكام الشرع.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ سورة التحريم (آية 1-2)

أولاً: سبب النزول

ذكر الامام السيوطى رحمه الله فى سبب نزول هذه الآية ما أخرجه الحاكم و النسائى بسند صحيح عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له أمة يطؤها (وهى مارية) فلم تزل به حفصة حتى جعلها (أى مارية) على نفسه حراما.

و هذه من أوجه الروايات فى تفسير هذه الأية ، أنه صلى الله عليه وسلم حرَّم على نفسه مارية القبطية التى أهداها إليه المقوقس حاكم مصر إرضاءً لزوجاته.

ثانياً: معانى النداء

• « يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك»

إذن فالنبى صلى الله عليه وسلم إبتغاء مرضاة زوجاته حرَّم على نفسه مارية القبطية ، فالله سبحانه وتعالى يبين له أن لا ينبغى أن تفعل هذا ، فالحق حق و الباطل باطل.

فلين عشرته صلى الله عليه وسلم ولطف جانبه و دماثة أخلاقه ، أطمع بعض نسائه رضى الله عنهن أجمعين فى الجرأة عليه.

• «قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم»

هذه الآية الكريمة يحتاجها كل إنسان ، فإن الله تبارك و تعالى -رحمة بنا- شرع لنا كفارة اليمين أو تحلة اليمين. تحلة اليمين تكون قبل الحَنث باليمين ، أما كفارة اليمين فتكون بعد الحَنث باليمين.

الحَنث باليمين أن تفعل خلاف القصد.

فلو أن إنساناً قال: والله لا أزور أختى ، فإما أن يدفع كفارة اليمين قبل أن يزور أخته، عندئذ تُسمى هذه الكفارة تحلة ، و إما أن يدفع الكفارة بعد أن يزور أخته فتكون كفارة.

فائدة: الأيمان ثلاثة : يمين منعقدة ، يمين اللغو ، اليمين الغموس وهى التى تغمس صاحبها فى النار والعياذ بالله ، و تكون على شىء ماضٍ ، أما المنعقدة ، و اللغو فتكون على أمور مستقبلية.

- «والله مولاكم وهو العليم الحكيم»

من لنا إلا الله؟ الإنسان دائما مرجعه إلى الله.

- « وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثا «

الحديث الذى أسره النبى إلى بعض أزواجه هو عدم زواجه بمارية (أى سيبقيها مِلك يمين ولن يتزوجها فتصبح أماً للمؤمنين).

و المجالس بالأمانة ، النبى صلى الله عليه و سلم أسرّ إلى بعض أزواجه عزمه على أن لا يتزوج بمارية القبطية ، هى (من أسرّ النبى لها الحديث) مباشرة أنبأت به أخواتها زوجات النبى صلى الله عليه وسلم.

- «فلما نبأت به و أظهره الله عليه» أخبره الله تبارك و تعالى عن طريق جبريل أنها نبأت بهذا الحديث:

«وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْض «

- «عرّف بعضه و أعرض عن بعض»

عاتب و ذكر بعض الذى قالته و أعرض عن ذكر بقية ما قالته.

صلى الله عليه و سلم لا يُحرج أحدا ، لم يضع زوجته فى زاوية ضيقة ، إياك أن تدفع إنسانا إلى أن يكذب فإن شدة التضييق تدفع إلى الكذب.

يوسف عليه السلام بعد لم شمل الأسرة قال : «وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن»

و لم يقل من الجُبّ مع أنه أخطر من السجن وذلك لكى لا يُذَكّر إخوته بفعلتهم.

و ليس معنى أن الانسان لا يتكلم أو لا يواجه الناس بأخطائهم أو لا يجرحهم ، ليس معنى ذلك أنه لا يعلم ، و لكنه يتغافر . فالإنسان كلما كان كاملا فإنه يتجنب إحراج الناس ، يتجنب التدقيق والتضييق، يلتمس الأعذار و يتعامى عن الأخطاء. وهذا خلق رفيع عالٍ نفتقده فى هذه الأيام.

• ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ فهى خشيت أن يكون من أنبأه إحدى زوجاته التى أسَرت إليها الحديث ، و لكن .... الذى أنبأه هو العليم الخبير سبحانه وتعالى والذى يعلم السر وأخفى.

ثالثا: الدروس المستفادة من النداء

• الشمائل الجميلة الحلوة لصاحب الرسالة لا يُسَوغ أن تكون سببا فى إزعاجه و إتعابه.

• صدر سورة التحريم حديث عن بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، كأن القرآن يريد أن يجعل حياته -صلى الله عليه وسلم- العامة والخاصة كتابا مفتوحا لأمته و للبشرية كلها.

و من ثمّ ، لا يجعل فى حياته سرا مخبوئاً و لا ستراً مطوياً.

ليس له – صلى الله عليه و سلم- فى نفسه شىء خاص ، فهو كله للدعوة ، يتعلم الناس من خلال حياته تفاصيل هذا الدين العظيم.

• مطلع السورة حديث عن بيوت النبى صلى الله عليه و سلم و زوجاته ، و ختام السورة حديث عن بيوت بعض الأنبياء (سيدنا نوح و لوط عليهما السلام) و زوجتيهما ، و فى وسط السورة حديث عن بيوتنا نحن و نساءنا « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم و أهليكم نارا وقودها الناس والحجارة»

• فى ختام هذا الدرس ورد قوله تبارك و تعالى:

«إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ.»

هذه الآية عجيبة جدا... فالموضوع إمرأتان ، فهل هاتان المرأتان الضعيفتان تحتاجان إلى هذا التضافر و الحشد من الملائكة وصالح المؤمنين ؟

بل هذه الحملة وهذا الحشد تطييب لخاطر النبى صلى الله عليه و سلم و لندرك من خلالها عمق الحادث و أثره فى قلب رسول الله صلى الله عليه و سلم.

و هذه الآية كذلك إنذار لأى إنسان يفكر أن يطفىء نور الله تبارك و تعالى أو أن يعارض الحق أو أن يقف أمام الحق ، فيجب أن يعلم أن الله و جبريل و صالح المؤمنين و الملائكة جميعهم ضده.

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلا (2) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلا(3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا ﴾ سورة المزمل (آية 1-4)

أولا : أسباب النزول:

يُروى فى سبب نزول هذه السورة أن قريشا اجتمعت فى دار الندوة تدبر كيدها للنبى صلى الله عليه و سلم و للدعوة التى جاءهم بها ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه و سلم فاغتم له ، و التف بثيابه و تزمل و نام مهموما فجاءه جبريل عليه السلام بشطر هذه السورة الأول.

و تروى رواية أخرى تتكرر كذلك بالنسبة لسورة المدثر أن السورة نزلت بعد مقابلة جبريل عليه السلام فى غار حراء و عودته صلى الله عليه و سلم إلى أهله يرتجف و يقول : زملونى ، دثرونى.

ثانيا: مفردات النداء:

• «يأيها المزمل» نداء كريم لطيف ودود للحالة التى كان عليها الرسول صلى الله عليه و سلم و هو نداء فريد وحيد لم يتكرر فى كتاب الله عز وجل.

• «قُم الليل إلا قليلا» : «يأيها المزمل قُم» قُم .. إنها دعوة السماء ، قُم ... للأمر العظيم الذى ينتظرك والعبء الثقيل المُهيأ لك ، قُم .. للجهد و النصب.

قُم ... كلمة عظيمة رهيبة تنتزعه صلى الله عليه و سلم من دفء الفراش فى البيت الهادىء والحضن الدافىء لتدفع به فى الخضم بين

الزعازع و الأنواء ، بين الشد و الجذب فى ضمائر الناس و واقع الحياة.

لقد أدرك الرسول صلى الله عليه و سلم حقيقة الأمر ، فقال لخديجة رضى الله عنها و هى تدعوه إلى أن يطمئن و ينام : مضى عهد النوم يا خديجة.

أجل مضى عهد النوم و ما عاد منذ اليوم إلا السهر و التعب و الجهاد الطويل الشاق.

• «نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه» قيام الليل ، إنه الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة.

• «و رتل القرآن ترتيلا» الأمر الثانى فى هذه السورة المباركة.

قيام الليل و الناس نيام ، و ترتيل القرآن و الكون ساكن ، هما الزاد لإحتمال القول الثقيل :

• « إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً « ثِقل القرآن بمعانيه و أوامره و نواهيه ، ثِقل القرآن على الكفار و المنافقين بإعجازه و وعيده و نحو ذلك ، ثِقل القرآن لما كان يحلُّ فى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثقل الجسم عند تلقيه الوحى حتى إنه إذا أوحى إليه و هو على ناقته بركت به.

• « إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً « ناشئة الليل : هى العبادة التى تنشأ بالليل بعد العشاء.

أشد وطئاً : أى أجهد للبدن ، و قيل أشد مواطأة بين القلب و اللسان فتكون أجمع للخاطر .

أقوم قيلا :أى أثبت فى الخير ، و قيل أشد مقالا و أصوب لأن السكون يساعد على إستحضار المعانى وتدبر الآيات.

إن مغالبة هتاف النوم و جاذبية الفراش بعد كد النهار أشد وطأً و أجهد للبدن ، ولكنها إعلان لسيطرة الروح على الجسد.

• « إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً » أى ترددا فى حوائجك و أمور المعايش ، فلينقض النهار فى هذا السبح و النشاط و طلب المعاش و التقلب فى المهمات و الشواغل ، و ليبقى الليل للقيام و الذكر و الترتيل.

• « وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا » الذكر عمل ، و التبتل انقطاع القلب لله ، فهو قلب وقفٌ لله تعالى.

و كيف لا ، و هو:

• « رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا » أمر جديد بالتوكل عليه سبحانه و تعالى ، التوكل على القوة الوحيدة فى هذا الوجود.

• « وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلا » من معينات التعبد والطريق : الصبر ، والهجر الجميل.

الصبر على تكذيب المكذبين أو تسفيه السفهاء ، والهجر الجميل هو الهجر الذى لا عتاب فيه كما يقول بن كثير رحمه الله.

ثالثا : الدروس المستفادة من النداء

• قيل للرسول صلى الله عليه و سلم قُم ، فقام ، و ظل قائما بعدها أكثر من عشرين سنة ، لم يسترح ولم يسكن و لم يعش لنفسه و لا لأهله ، و إنما قام و ظل قائما على الأمانة ، عبء الأمانة الكبرى فى هذه الأرض ، تلكم الأمانة التى أشفقت من حملها السموات و الأرض و الجبال.

إن الذى يعيش لنفسه قد يعيش مستريحا ، و لكنه يعيش صغيرا و يموت صغيرا ، فأما الكبير الذى يحمل هذا العبء الضخم ، فماله و النوم؟ و ماله و الراحة؟ إن البشرية لا تسعد إلا بوجود أمثال هؤلاء الكبار. أخرج من ذات نفسك و من دائرتك الضيقة إلى خدمة الخلق و القيام بدورك.

• الزاد ، أو معينات الطريق و التعبد هى : قيام الليل ، ترتيل القرآن ،

الذكر ، التبتل ، التوكل ، الصبر ، الهجر الجميل.

إنه زاد الدعاة ، و زاد أهل الإيمان ، زاد الذين لهم فى النهار سبحا طويلا من الرجال فى طلب المعاش أو النساء ربات البيوت فى القيام على بيوتهن و أزواجهن و أولادهن و أعبائهن.

هناك نشاطات سهلة جدا على النفس البشرية : كالسماع و المشاهدة و الحديث و الثرثرة و التعليقات و النقد ، و هذه القضايا سهلة جدا ، و الصعب هو القيام و الترتيل و الذكر و التبتل و التوكل والصبر والهجر ، فالله يريد أن يمتحنك ، ما مدى مصداقيتك ، يكشفك أمام نفسك.

(16)

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾.

سورة المدثر (آية 1-7)

أخرج الامام البخارى رحمه الله فى صحيحه عن جابر بن عبد الله الأنصارى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه:

فبينا أنا أمشى إذ سمعتُ صوتا من السماء فرفعت بصرى فإذا المَلَك الذى جائنى بحراء جالس على كرسى بين السماء و الأرض فرُعبت منه ، فرجعت – أى إلى البيت- فقلت : زملونى فأنزل الله تعالى « يأيها المدثر قُم فأنذر» إلى قوله «و الرُجز فاهجر» فحمى الوحى و تتابع.

قال بن كثير : و بهذا حصل لسيدنا محمد صلى الله عليه و سلم الإرسال كما حصل بالأول النبوة.

و يقصد بن كثير بالأول : آيات « إقرأ باسم ربك الذى خلق»

آيات النداء

• «يأيها المدثر» إنه النداء العلوى الجليل.

الدثار هو الغطاء أو الثوب الذى يكون فوق الشعار ، و الشعار هو ما يلى الجسد دون ما سواه من الثياب.

• «قُم فأنذر» الإنذار : إعلام بتخويف.

فالنداء إذاً ، للقيام بالأمر العظيم الثقيل : نذارة هذه البشرية و إيقاظها ، وهو واجب ثقيل شاق حين يناط بفرد من البشر – مهما يكن نبيا أو

رسولا – فالبشرية من الضلال و العصيان و التمرد و العتو و العناد و الإصرار والإلتواء ، بحيث تجعل من الدعوة أصعب و أثقل ما يُكلفه إنسان من المهام فى هذا الوجود.

و الإنذار تنبيه للخطر الذى ينتظر الغافلين السادرين فى الضلال و هم لا يشعرون ، وقد اقتضت رحمة الله أن يمنحهم كل هذه العناية بإرسال الرسل و إنزال الكتب ليخلصهم من العذاب الأليم فى الأخرة و من الشر المقيم فى الدنيا.

ثم يوجه اللهُ رسولَه صلى الله عليه و سلم فى خاصة نفسه بعد أن كلفه نذارة غيره :

- «و ربك فكبر» ربُّك وحده ، فهو وحده الكبير ، الذى يستحق التكبير.

إن كلّ أحد ، و كل شىء ، و كل قيمة ، و كل حقيقة .. صغير .. و الله وحده هو الكبير.

فتتوارى الأحجام و الأجرام ، و الأحداث و الأحوال فى ظلال الواحد الكبير المتعال.

و التكبير يُفتتح به الأذان ، و تُفتتح به الصلوات ، و الجهاد ، و هو توجيه للرسول صلى الله عليه و سلم ليواجه نذارة البشرية و متاعبها و أهوالها و أثقالها بهذا التصور ، فيستصغر كل كيد و كل قوة و كل عقبة و هو يستشعر أن الذى أمره هو الكبير جلّ و علا.

و مشاق الدنيا و آلامها و متاعبها و همومها فى حاجة دائمة إلى إستحضار هذا التصور و هذا الشعور .

فيا أيها الموحد إياك أن تستغرقك مشاكل الدنيا و متاعبها .. فالله أكبر ، و إياك أن تنسيك همومها الكبيرة أن الله أكبر ، و إياك أن تئن تحت ضغط الديون والأحزان ، فالله أكبر.

• « و ثيابك فطهر » توجيه إلى التطهر ، مظهر الداعية ، و طهارة الثياب في الاستعمال العربي عبارة عن طهارة القلب و الخلق و العمل.

فكأنه قيل له صلى الله عليه و سلم : فأنت على طهرك ، و تطهرك بفطرتك في كمال إنسانيتك ، بما جبلك الله عليه من أكرم مكارم الأخلاق ، أحوج إلى أن تزداد في تطهرك النفسي ، فتزداد من المكارم في حياتك مع الناس والأشياء ، فتزداد صبرا ، حلما ، عفوا ، إحسانا ، دأبا في تبليغ دعوة ربك.

ذلك لأنه سيدعو في شتى الأوساط و البيئات و الظروف و القلوب مع ما يصاحب هذا و يلابسه من أدران وأخلاط و شوائب.

أحوج ما يحتاج إليه الدعاة الآن : الطهارة ، طهارة القلب ، اللسان ، الخلق ، العمل.

• « و الرجز فاهجر » الرجز : الإثم ، أما الرجس فهو القذر و الفعل القبيح ، و الرسول صلى الله عليه و سلم كان هاجرا للرجز حتى قبل النبوة ، فقد عافت فطرته السليمة ذلك الإنحراف ، فكأنه قيل له صلى الله عليه وسلم : ليكن قصدك و نيتك في تركك ما تركت على سبيل الفطرة و الطبع ، فليكن من الآن تكليفا و تعبدا لتكون قدوة لأمتك.

• «و لا تمنن تستكثر» توجيه إلى إنكار الذات ، و عدم المن بما يقدمه من الجهد أو إستكثاره أو إستعظامه ، و هو صلى الله عليه و سلم سيقدم الكثير و سيبذل الكثير و سيلقى الكثير من الجهد و التضحية و العناء.

و هذه الدعوة لا تستقيم في نفس تحسُّ بما تبذل فيها ، فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه ، و تتوجه إلى الله بالشكر و الثناء على الاختيار و الاصطفاء و التكريم.

• «و لربك فاصبر» توجيه إلى الصبر ، و هى الوصية التى تتكرر عند كل تكليف ، وفى مجىء الأمر فى صدر الآيات بالإنذار منفردا عن التبشير فى أول خطاب وُجِّه إلى النبى صلى الله عليه و سلم بعد فترة الوحى إيذان وإعلام بأن رسالته تعتمد على الكفاح الصبور ، و هنا تبرز أهمية الصبر و الوصية به.

هداية الآيات

• تتعلم أيها المسلم من «قُم فأنذر» أنه ينبغى لك أن تفكر : كيف أخذ بيد أولادى؟ كيف أقنع زوجتى بالحق؟ كيف أقنع أولاد إخوتى ؟ كيف أدعو جيرانى من حولى ؟ كيف أطبق قوله صلى الله عليه و سلم : بلغوا عنى و لو آية ؟

هل تعلمت و عملت؟ هل قرأت القرآن و أقرأته ؟ هل نقلت حديثاً ؟ هل بلغت حكماً ؟

• الإنذار مبعثه الشفقة ، أما التنفير فمبعثه الغلظة و توريط العباد و إقامة الحجة عليهم فالإنذار يكون بالنصيحة و اللطف و المودة ، زيارة فى بيت المدعو ، قدم له هدية ، حِل له مشكلة ، ثم خُذ بيده إلى الله.

• « و الرجز فاهجر « إياك و ما يُعتذر منه . إجعل بينك و بين حدود الله هامش أمان.

الفهرس